باطِنُ الْقُرْآنِ الكَرِيمِ
جَدَلِيَّةُ الإِثْبَاتِ وَالمَعْنى والْمَنْشَأ

د.علي الحواني
جامعة المصطفى العالمية
قم – جمهورية ايران الاسلامية

فحوى البحث

تعد مسألة (بطون القرآن) من المسائل المثيرة للجدل في مباحث التفسير والتأويل. فهناك من ينكر وجود أدلة صحيحة على ثبوتها، وهناك من يغالي في ثبوتها على حساب الظاهر، وهناك من يؤكد على ضرورة الوقوف على بواطن القرآن مع الاختلاف في معانيها.

تطرق الباحث الى اتجاهات فكرة وجود بطون للقرآن، والادلة التي أقيمت على هذا الوجود مع بيان معانيها. و قد عرض السيد الباحث اتجاهين في بيان منشأ ذلك هما:

– الاتجاه المعرفي .

– الاتجاه الوجودي .

وبين ان كل اتجاه تنبثق منه تكييفات مختلفة لحقيقة البطون ومناشئها.

تمهيد:

شغلت مسألة الظاهر والباطن حيّزاً كبيراً في الفكر الديني عامّة، وفي مباحث التفسير والتأويل خاصّة، والذي نلحظه في تراثنا الإسلامي تباين المواقف إزاء نقد فكرة المعنى (الباطن) إلى ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: الاتجاه الذي يسرف في الحطّ من منزلة الظاهر وإنكارها، ويُعلي من شأن الباطن على حساب الظاهر، وهو اتجاه الفرق الباطنية والغلاة وبعض المتصوفة.

الاتجاه الثاني: الاتجاه الذي جمد أصحابه على الظاهر، ورفضوا كلّ ضروب التأويل ومقولات البطون، ويمثّل هذا الاتجاه المذهب الظاهري وبعض السلفيين.

الاتجاه الثالث: اتجاه معتدل، حاول أن يسلك مسلكاً وسطاً في التعامل مع فهم النصّ، مؤكّداً على عدم التفريط بالظاهر على حساب الباطن، أو بالباطن على حساب الظاهر، ومشدّداً على أن يكون للظاهر أحكامه وللباطن أحكامه، ومؤكّداً على علاقة الباطن بالظاهر، ويتمثّل هذا الاتجاه في رعيل من المفسّرين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين.

وقد استدلّ كثير من العلماء على أهمّية الوقوف على المعنى الباطن لآيات القرآن-وخاصّةً في الآيات المتشابهة- واعتبره البعض مقدّماً على المعنى الحرفي، فهذا أبو إسحاق الشاطبي، الذي انتقد الظاهريين في كتابه (الموافقات)، يرى أنّ المعنى الباطن في كثير من الآيات المتشابهة، هو الذي ينقذ العقيدة من التناقض، ثم يقدّم المعنى الباطن على المعنى الحرفي؛ يقول في هذا الصدد: ((وعلى الجملة، فكلّ مَن زاغ ومال عن الصراط المستقيم، فبمقدار ما فاته من باطن القرآن فهماً وعلماً، وكلّ مَن أصاب الحق وصادف الصواب، فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه))[1].

إنّ الجدليّة القائمة بين الظاهر والباطن وموقعها المركزي في ظاهرة التأويل، تدعونا للبحث عن مناشئ البطون في القرآن الكريم، ودراسة

(١) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة ص٦٥١.

النظريات المطروحة في هذا المجال، وقبل كلّ هذا أرى من الضرورة أن نستجلي حقيقة البطون ومعانيها؛ لأنّي أرى اختلافاً واسعاً واضطراباً مستمراً في تحديد معاني بطون القرآن الكريم، بل هناك تشكيكا في أدلتها، وصعوبة التفريق -عند البعض- بينها وبين التفسير الباطني.

أدلة بطون القرآن:

إنّ وجود بطون للقرآن الكريم أمر ممكن من الناحية الثبوتية، ولا يلزم منه أيّ محذورٍ عقلي أو عقلائي، كذلك من الناحية الإثباتية توجد أدلة متعدّدة على ذلك:

١. مقايسة أهداف النصّ مع محدودية الألفاظ:

إنّ الهدف الذي ينشده القرآن هو هداية الناس وتأمين سعادتهم في الحياة الدنيا والآخرة، وهذا الهدف لا يتحقق إذا لم تتوفر الشريعة على نصوص جامعة، لكلّ ما يحتاجه الفرد والمجتمع من إرشادات وتعاليم، تحدّد مسارات الحياة الإنسانية على مرّ العصور واختلاف الأحوال، وإلاّ فلازم نفي شمولية الشريعة عدم إيفاء القرآن بالهدف المرسوم له، وهذا يعني أنّ هناك قصوراً في النصّ، أو تقصيراً في إبلاغ الوحي من قِبل النبيّ، وكلاهما محال عقلاً.

في نهج البلاغة نجد إشارة إلى هذا الاستدلال في قول أمير المؤمنين عليه السلام: ((أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى، أم أنزل ديناً تاماً فقصر عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الانعام: ٣٨]، وفيه تبيان لكل شيء؟!.))[٢].

كما نلحظ من جهة أخرى أنّ ظاهر القرآن لم ينطق ببيان جميع الفروع وجزئيات الأحكام؛ لأنّ بيان المعارف التي تتعلق بهذا الهدف الكبير على مستوى ظاهر العبارة في قالب لفظي محدود أمر غير ممكن.

إذاً، لابدّ من أن نفترض أنّ جزءاً

(٢) نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ج١، ص٥٥، الخطبة ١٨.

هامّاً من هذه التفاصيل يُبيّن في قالب البطون التي ينطوي عليها النصّ، وهذه المعاني الخفيّة، تكون في أغلب الأحيان غير قابلة للاستنباط، ولا تنالها الأفهام بالاستفادة من قواعد المحاورة العقلائية، ولهذا السبب سمّيت بالبطون، وليس هناك طريق إلى بيانها إلاّ عن العالِمين ببطون القرآن وتأويله، وهم أهل الذكر، قال عليٌ عليه السلام: ((ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم، أخبركم عنه، إنّ فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة، وحكم ما بينكم، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، لو سألتموني عنه لعلَّمتكم))[٣].

يكتب جماعة من الدارسين في هذا المجال: ((إنّ القرآن في عين كونه كتاب هداية للإنسان وتحدّث مع الناس بلسانهم، إلاّ إنّه من جانب آخر بيان لجميع المعارف المؤثرة في حياة الإنسان، وبما أنّ بيان جميع المعارف والشروط الضرورية لسعادة البشر في قالب ألفاظ القرآن المحدودة أمر غير ميسّر، فأنّ قسماً مهماً من هذه المعارف بيّنت في قالب معاني الباطن، وبما أنّ هذه المعاني الباطنية لم تكن قابلة للفهم على أساس القواعد العقلائية للمحاورة بالنسبة لجميع الأفراد، فلا طريق لتحصيلها إلاّ بالاستفادة من بيانات النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام))[٤].

٢. طلاقة النصّ وعموم التشريع:

يمتاز النصّ القرآني بعموميته وإطلاقه، بمعنى أنّ الحقائق والمعارف القرآنية لم تشرّع لزمانٍ دون زمان ولا لحالٍ دون حال، وأحكامه لا تتقيّد بفردٍ دون فرد، بل هي كالأمثال تسري في كلّ مورد مشابه، ولا تختصّ بمواردها، وإنّما تتعداه إلى ما يناسبها أو يماثلها، وتجري في كلّ ما تتحد معه (ملاكاً أو مفهوماً).

٣. الأدلة القرآنية:

استند بعض العلماء من الفريقين إلى إطلاق أو عموم بعض الآيات القرآنية؛

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج١، ص٦٠، ح٧؛ نهج البلاغة، ج٢، ص٥٤ (باختلاف يسير).

(٤) بابائي، علي أكبر، وآخرون، روش شناسى تفسير قرآن (فارسي)، ص٢٥٣.

لإثبات وجود البطون في القرآن، من جملتها تعبير، ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[سورة الانعام: ٣٨] و ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [سورة النحل: ٨٩] وقوله: ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[سورة يوسف: ١١١]؛ بملاحظة أنّ كلمتي (تبيان) و(تفصيل) اضيفتا إلى (كلّ شيء) وفي ذلك دلالة على الشمول والإطلاق على النحو الذي يستوعب كلّ الأشياء بما يتناسب مع أهداف الدين وله صلة بهداية الانسان، ومن المعلوم أنّ الاستناد إلى الفهم الذي يمارسه الأفراد طبقاً لأصول المحاورة العرفية وقواعد اللغة، لا يمكّنهم من استنباط كلّ شيء من ظواهر القرآن، فعلى هذا لابدّ أن يكون جزء عظيم من هذه المعارف يستبطنها النصّ القرآني ويفهمها ولو (أفراد خاصّون).

يعتقد الآلوسي أنّ هذه الآيات تلزمنا بالاعتراف باشتمال القرآن على معانٍ باطنة محتجبة خلف الألفاظ، إذ يقول: ((ولا ينبغي لَمن له أدنى مسكة من عقل، بل أدنى ذرة من إيمان، أن ينكر اشتمال القرآن على بواطن يفيضها المبدأ الفيّاض على بواطن مَن شاء من عباده، ويا ليت شعري!. ماذا يصنع المنكر بقوله تعالى: ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[سورة يوسف: ١١١]، وقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[سورة الانعام: ٣٨]، ويا لله تعالى العجب ! كيف يقول باحتمال ديوان المتنبي وأبياته المعاني الكثيرة ولا يقول باشتمال قرآن النبيّ ﷺ وآياته ـ وهو كلام ربّ العالمين المنزل على خاتم المرسلين ـ على ما شاء الله تعالى من المعاني المحتجبة وراء سرادقات تلك المباني ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة النور: ١٦]؟!.))[٥].

٤. الأدلة الروائية:

هناك من يقول بأنّ روايات الظاهر والباطن كلّها إمّا موضوعة أو ضعيفة السند؛ لأنّها إمّا مرسلة، أو مرفوعة، أو مقطوعة[٦]، لكن هذا غير صحيح؛ لأنّه

(٥) الآلوسي، شهاب الدين، أبو الفضل محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١، ص٧ -٨.

(٦) ابن تيمية، التفسير الكبير، ج٢، ص٤١؛ وانظر أيضاً: ابن عاشور، التحرير

على أقلّ التقادير توجد لدينا مجموعة روايات منها بسندٍ صحيح أو معتبر أو موثّق، وروايات في المصادر السنّية وصفوها بالصحة أو الحسن، ومنها ما يدلّ صراحة على وجود بواطن للقرآن، ومنها ما يدلّ التزاماً على ذلك، ونذكر- هنا -بعض من هذه الروايات القابلة للاعتماد:

أ. **روايات صريحة في (البطون):**

يستند بعض العلماء في إثبات المعنى الباطن في القرآن إلى الروايات الغفيرة المنقولة عن طريق الفريقين، والتي فيها دلالة صريحة على وجود ظاهر وباطن للقرآن، ومعنى عميق بعيد المنال، كما يفهم من بعضها أيضاً، إنّ ما يميّز القرآن عن غيره من الكلام هو ليس كونه له ظاهر وباطن فحسب، وإنّما له ظاهر محكم ووثيق يصل إلى حدّ الإعجاز، وله باطن عميق ليس له حدّ ومنتهى ينتهي إليه، ولا تدرك العقول نهايته.

فهناك في المصادر الشيعية روايات عديدة، بعضها صحيحة السند، دلّت بصراحة على أنّ لجميع القرآن ظاهر وباطن، مثلا رواية الفضيل بن يسار، في سؤاله للإمام الباقر -والذي يستفاد منها أنّ الإمام عليه السلام أثبت أصل وجود البطن والظهر في كلّ آية، وفسَّر الظهر والبطن -قال: سألت أبا جعفر، عن هذه الرواية: ((ما من آية إلاّ ولها ظهر وبطن))، فقال: ((ظهر القرآن تنزيله وبطنه تأويله، منه ما قد مضى، ومنه ما لم يكن، يجري كما تجري الشمس والقمر، كلما جاء فيه تأويل شيء منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: ٧] نحن نعلمه))[٧].

وحديث جابر بن يزيد الجعفي، عن

والتنوير، ج١ ص٣٤ حيث ينكر وجود روايات صحيحة السند؛ وانظر: ابن حزم، الاحكام في اصول الاحكام، ج٣، ص١٧١، حيث يتردد في وجود بطون للآيات ويعتر الروايات الدالة على وجود البطون مرسلة.

(٧) الصفار، محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد، ص٢١٦؛ ورواها العياشي في تفسيره ج١، ص٤٩.

الإمام الباقر عليه السلام الذي يقول فيه: ((يا جابر، إنّ للقرآن بطناً، وللبطن بطن، وله ظهر، وللظهر ظهر..))[٨].

في كتاب (مَن لايحضره الفقيه) رواها الصدوق، عن عبد الله بن سنان، قال: أتيت أبا عبد الله فقلت له: جعلني الله فداك ما معنى قول الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾؟. قال: ((أخذ الشارب، وقصّ الأظفار، وما أشبه ذلك». قال: قلت: جعلت فداك، فإنّ ذريحاً المحاربي حدّثني عنك أنّك قلت: ((ليقضوا تفثهم)): لقاء الإمام ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ المناسك)). قال عليه السلام: ((صدق ذريح وصدقت، إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ومَن يحتمل ما يحتمل ذريح))[٩].

كذلك حسنة حمران بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((ظهر القرآن الذي نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم))[١٠].

وهناك روايات أخرى عن أهل السنّة، منقولة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وبعض الصحابة، تدلّ بشكلٍ صريح على وجود بطون للقرآن الكريم:

منها رواية أخرجها ابن حبّان في صحيحه، عن ابن مسعود، عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((نزل القرآن على سبعة أحرف، لكلّ آيةٍ منها ظهر وبطن)) وهذه الرواية صحّحها ابن حبّان[١١] ووثّقها الهيثمي واعتبر رجالها ثقات[١٢].

عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ((ما منه آية إلاّ ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف إلاّ وله حدّ، ولكلّ حدٍّ مطلع))[١٣].

أيضاً هناك حديث منقول بطرق

(٨) العياشي، أبو النظر محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج١، ص١٢.

(٩) الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٤٨٥؛ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٤، ص٥٤٩. وسند الرواية مورد اتفاق.

(١٠) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج١، ص١١.

(١١) ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ج١، ص٢٧٦.

(١٢) الهيثمي، ابو بكر، مجمع الزوائد، ج٧، ص١٥٢.

(١٣) ابن حزم، علي بن احمد، الإحكام في أصول الأحكام، ج١، ص٢٨٧ -٢٨٨؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ج١، ص٥٥٠.

متعددة في مصادر الشيعة وأهل السنّة وبعضها صحيح، أنّ رسول الله ﷺ قال: ((إنّ منكم من يقاتل بعدي على التأويل، كما قاتلت على التنزيل))، فسئل: من هو؟. فقال ﷺ: خاصف النعل، يعني أمير المؤمنين عليه السلام))[١٤].

والتأويل -هنا -هو أحد معاني البطون، كما ورد في بعض الروايات، وعليه فإنّ هذا الحديث يدلّ على وجود بواطن للقرآن الكريم؛ لكون الآيات التي يستند إليها صاحب التأويل في وجوب قتال أهل البغي ليست نصّاً في خصوص طائفة منهم، وإنّما تكون شاملة لهم بعمومها وإطلاقها بعد حذف الخصوصيات التي تكتنف النصّ، وتنقيح المناط، ثمّ تطبيقه على هؤلاء، أو أن ينظر إليهم على أنّهم مصداقاً جديداً تجري فيه آيات الجهاد، حيث إنّ المصاديق المتحقّقة في الأجيال التي تلي عصر الوحي تُعد تأويلاً، في مقابل مصاديق عصر النزول التي تُعد تنزيلاً.

(١٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٥، ص١٤.

فقد كان علي عليه السلام يستند إلى جملة من النصوص في قتاله في حرب البصرة، وكان يتلو الآية: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢]. ثمّ يقول: ((والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، واصطفى محمّداً بالنبوّة، إنّهم لأصحاب هذه الآية، وما قوتلوا منذ نزلت))[١٥]، ولا شكّ إنّ هذه تطبيقات لمفاهيم الكتاب على مسائل مستحدثة آلت إليها أحوال الأمة، وكان علي عليه السلام هو المعني بتطبيق أحكام القرآن، كما ينصّ الحديث المتقدم.

وعلى هذا الأساس، لا مجال لتوهّم البعض، كـ(ابن تيمية) حينما سئل عن حديث بطون القرآن فأجاب: أنّ أحاديث بطون القرآن مكذوبة[١٦]، مع

(١٥) الحميري، أبو العباس عبد الله، قرب الإسناد، ص٩٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٤٠٣؛ وروى نحوه العياشي في تفسيره، ص٧٧، ص٢٣.

(١٦) ابن تيمية، أحمد، التفسير الكبير، ج٢، ص٤١.

توافر الروايات الصحيحة والصريحة، ومنقولة في مصادر الفريقين.

ب. روايات التأويل:

كما يمكن أن يستدلّ على وجود البطون، بمجموعة من الروايات التأويلية الواردة في مباحث التفسير المأثور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، والتي لم تذكر البطن صراحة، لكن تدلّ بالالتزام على وجود معنى باطن في الآية. مثلاً: ورد في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في ذيل الآية: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[سورة النحل: ٤٣]، قال: ((نحن أهل الذكر، ونحن المسؤولون))[١٧].

وأمثال هذه الرواية كثير جدّاً مبثوث في مباحث التفسير، وهي جميعاً تشير إلى مصاديق أو دلالة خفيّة، أعمق وأوسع من المعنى التنزيلي الظاهر من لفظ الآية، ولازم ذلك ثبوت هذا المعنى الباطن في هذه الآيات.

وليس معنى هذا أنّ هذه الروايات تنفي المصداق أو المعنى الظاهر من الآية، بدليل أنّ بعضها -كما في رواية عبد الله بن سنان -ذكرت المصداق أو المعنى الظاهر، و في نفس الوقت أشارت إلى المصداق أو المعنى الباطن فيها.

معاني البطون:

حقيقة (المعنى الباطن) يمكن التماسها من النصوص الروائية؛ لأنّ المستند أو الدليل الذي يطمئن إليه في إثباتها هو الروايات نفسها، وقد أشارت بعضها إلى معنى (البطن) بشكل صريح، وأخرى ذكرت مصاديق بطون بعض الآيات معبّرة عنه بـ(التأويل)، ومن خلال مراجعتنا للنصوص المتقدّمة يمكن أن نسجّل نتيجة هي: أنّ مصطلح البطن قد استعمل بمعناه اللغوي، أيّ مطلق المعنى المستبطن في الآية، الخفيّ عن الأنظار في بدء الأمر، وهذه المعاني لها مصاديق عديدة ذكرتها الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، وطبقاً لهذه النصوص يمكن أن نسجّل هنا عدّة معاني لمفهوم (البطن):

١. البطن بمعنى (التأويل):

(١٧) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج٢، ص٢٦ حديث ٣٢.

إن مفهوم (التأويل) وإن كان مغايراً لمفهوم (البطن)؛ إلاّ إنهما قد يتحدان معا في بعض النصوص، فربما يطلق (التأويل) ويراد منه (البطن). وربما يكون العكس، بأن يطلق لفظ (البطن) ويراد منه وجوه التأويل.

ويقصد بالتأويل -هنا- التحقق العيني لمصاديق الآيات في الخارج؛ أي أن للآية مورد نزول يكشف عن مدلولها الأولي ويعبَّر عنه بسبب النزول، ولها مصداق باطن تنطوي عليه الآية لم يتحقق حين النزول، والآية تشير بعمومها إلى ما سيؤول إليه هذا المصداق الباطن فيما بعد على مر الزمان، كما في بعض الآيات التي فسرت في المهدي عليه السلام، منها الآية الشريفة: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [سورة الملك: ٣٠]، قال عليه السلام: ((والله ما جاء تأويل هذه الآية ولا بدّ أن يجيء تأويلها))[١٨].

والمراد من تأويلها كما في حديث آخر صحيح، عن الإمام الكاظم عليه السلام: ((إذا غاب إمامكم فمن يأتيكم بإمام من جديد))[١٩].

وكذلك تطبيق قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [سورة القصص: ٥] على أهل البيت في عصر الظهور[٢٠].

٢. الرموز والمعاني البعيدة:

في روايات متعددة -ومن بينها ما هو معتبر- إشارة إلى معاني بعيدة عن الدلالة العرفية، وأحيانا يراد منها الرموز والحروف والكلمات أو التراكيب الخارجة عن اطار قواعد اللغة وأصول المحاورة العقلائية. كما هو في تفسير الآيات (١٩ -٢٢) من سورة الرحمن ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ... يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ

(١٨) المجلسي، بحار الانوار، ج٥٢، ص٥١، باب الآيات المؤولة بقيام القائم.

(١٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج١، ص٣٤٠؛ أنظر: الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، كمال الدين، ص٣٥١.

(٢٠) الحسكاني، عبد الله بن احمد، شواهد التنزيل، ج١: ص٥٥٦، ح٥٩٠؛ الطوسي، الغيبة، ص١٨٤.

وَٱلْمَرْجَانُ [سورة الرحمن: ١٩ -٢٢]

ينقل بعض المفسرين روايات عديدة: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} علي وفاطمة عليهما السلام، {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ} محمد صلى الله عليه وآله، {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} الحسن والحسين[٢١].

٣. الجري والتطبيق:

عبّرت بعض الروايات (ببطن) الآية أو (تأويلها)، ويراد منهما تطبيق وجري الآية على المصاديق الجديدة المتحقّقة في مرور الزمن بعد تجريد النصّ من خصوصيات النزول التي تنطبق عليها الآية ابتداءً، بناءً على تعميم المفهوم على الموارد المشابهة، هذا ما تشير إليه موثّقة الفضيل بن يسار عن الإمام الباقر عليه السلام: ((ظهر القرآن تنزيله وبطنه تأويله))[٢٢].

وفي حديثٍ آخر عن الفضيل عن الباقر عليه السلام: ((ظهره وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد، يجري كما تجري الشمس والقمر))[٢٣].

وفي رواية حمران -والتي سندها حسن- عن الباقر عليه السلام: ((ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم))[٢٤].

وهذا المعنى أمر بدهي ومسلَّم وحقيقة مؤكدة، فالنصّ القرآني يتخطى الزمان والمكان، والسبب الذي يدعونا الى أن نتقبل هذه الفكرة هو أنّ القرآن خوطب به البشرية كلّها، وأنّ شمولية الرسالة وديموميتها وقابليتها لأن تكون نظاماً يمتد إلى كلّ أبعاد الحياة، ويواكب كلّ التطورات والمتغيّرات الطارئة في حياة البشر، يتطلب أن يكون النصّ المعد لها نصّاً فاعلاً ومؤثراً في الواقع في كلّ عصرٍ، وإلاّ فإنّ خنق الآية في إطار واقع معيّن بمثابة إبطال للآية وإلغاء لأثرها.

إنّ الجري يمثّل حياة القرآن و((لو أنّ الآية إذا نزلت في قوم، ثمّ مات

(٢١) العروسي، جمعة، نور الثقلين، ج٥، ص١٩٠ -١٩١؛ الصدوق، الخصال، ج١، ص٦٥، ح٩٦.

(٢٢) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص٢١٦.

(٢٣) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج١، ص١١.

(٢٤) المصدر نفسه.

أولئك القوم ماتت الآية، لما بقي من القرآن شيء، ولكنما القرآن يجري أوله على آخره، مادامت السموات والأرض..))[٢٥].

وقد أكّد علماء المسلمين على إطلاق القرآن وعدم محدوديته بزمانٍ دون زمان أو مكانٍ دون مكان، حيث إنّ شأن نزول الآيات لا يختصها بمواردها، وقد أطلق العلاّمة الطباطبائي على هذا المنهج اسم (الجري والتطبيق)، منبّهاً على اقتباسه من الروايات التفسيرية المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: ((وفي هذا المعنى روايات أخر، وهذه سليقة أئمة أهل البيت. فإنّهم عليهم السلام يطبقون الآية من القرآن على ما يقبل أن ينطبق عليه من الموارد، وإن كان خارجاً عن مورد النزول...))[٢٦].

وعلى هذا الأساس اعتبر العلاّمة قدس سره الكثير من الروايات التي تربط شأن نزول مجموعة من الآيات في أهل البيت عليهم السلام، أو في أعدائهم ومخالفيهم، أنّها من باب الجري والتطبيق، إذ قال قدس سره: ((والروايات في تطبيق الآيات القرآنية عليهم عليهم السلام أو على أعدائهم أعني: روايات الجري، كثيرة في الأبواب المختلفة، وربما تبلغ المئين))[٢٧].

في روايات أهل السنّة أيضاً نسب هذا المعنى إلى ابن مسعود رضي الله عنه قوله: ((ما من آية عمل بها قوم، إلاّ ولها قوم سيعملون بها))[٢٨].

٤. المفهوم المنتزع من فحوى الآية:

لم تكن بطون القرآن مقصورة على جري الآية في مصاديقها الخارجية فحسب، كما مرّ في الجري والتطبيق، بل قد تكون عبارة عن انتزاع المفهوم والمدلول اللفظي الأوسع والأعمق من ظاهر الآية، وتطبيقه على الموارد المشابهة، بعد إلغاء الخصوصيات الحافة بالكلام، والأخذ بعموم الملاك إن كان

(٢٥) المصدر نفسه، ص٢١.
(٢٦) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٤٢.
(٢٧) المصدر نفسه.
(٢٨) الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص١٦٩.

الملاك واحدا، وتنقيح المناط، دون النظر إلى المصداق في الخارج.

مثلا: روى الكليني بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة: ٣٢] قال: ((من حرق أو من غرق)). قلت: ومن أخرجها من ضلال إلى هدى؟. قال: ((ذلك تأويلها الأعظم))[٢٩].

وكما في رواية عبد الله بن سنان المتقدّمة، في مَن لا يحضره الفقيه، نقلها الصدوق عن عبد الله بن سنان قال: أتيت أبا عبد الله عليه السلام فقلت له: جعلني الله فداك ما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: ((أخذ الشارب، وقصّ الأظفار، وما أشبه ذلك)). قال: قلت: جعلت فداك فإن ذريحاً المحاربي حدّثني عنك أنّك قلت: {لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ}: لقاء الإمام {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}: المناسك. قال: ((صدق ذريح وصدقت، إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح))[٣٠].

ذكرت الرواية وجهين في الآية؛ ووجه الاشتراك والملاك الجامع بينهما وهو (التطهير)، إذ إنّ هناك تطهير مادي للجسد هو إزالة الأوساخ وقصّ الشارب ونتف الإبط وغيرها، وتطهير معنوي للروح أو القلب من القذارات المعنوية والخلقية الرذيلة، فإنّ ما قاله عليه السلام لذريح هو تطهير الباطن، وما قاله لعبد الله بن سنان هو تطهير الظاهر، والأول هو التأويل والباطن، والثاني هو التفسير والظاهر. فالتفث هو الوسخ والشعر، و{لْيَقْضُوا} أيّ من الوسخ والشعر.

قال العلامة المجلسي قدس سره: ((مقتضى الجمع بين الأخبار، حمل قضاء التفث على إزالة كلّ ما يشين الإنسان في بدنه وقلبه وروحه؛ ليشمل إزالة

(٢٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢، ص٢١٠-٢١١.

(٣٠) الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، من لايحضره الفقيه، ج٢، ص٤٨٥؛ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٤، ص٥٤٩.

الأوساخ البدنية بقصّ الأظفار وأخذ الشارب ونتف الإبط وغيرها، وإزالة وسخ الذنوب عن القلب بالكلام الطيب والكفارة ونحوهما، وإزالة دنس الجهل عن الروح بلقاء الإمام عليه السلام، ففسّر في كلّ خبر ببعض معانيه، على وفق إفهام المخاطبين ومناسبة أحوالهم))[٣١].

٥. العلم وعُمق المعنى:

في رواية الإمام الصادق عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله التي وصفت (الظاهر) بالإحكام والجمال، و(البطن) بالعلم والعمق: ((له ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق))[٣٢].

٦. الفهم:

روي عن علي عليه السلام قوله: ((ما من آية إلاّ ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحدّ، ومطلع، فالظاهر: التلاوة، والباطن،: الفهم، والحدّ: هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع: هو مراد الله من العبد بها))[٣٣]، وهذه الرواية فسّرت الظاهر بالتلاوة، والباطن بالفهم، ومن مناسبات الحكم والموضوع يفهم أن المراد من التلاوة: المعنى الابتدائي الذي يفهم حال التلاوة، وبقرينة المقابلة فإن عبارة (والباطن الفهم) تعني أنّ الباطن هو المعنى العميق الذي لا ينال إلا بتدبّر واعمال الفكر.

علاقة الظاهر بالباطن:

إنّ أكثر علماء الأُمّة متفقون على أنّ المعاني الباطنة منها ما هو مقبول، إذا ما أمكن الجمع بينه وبين المعنى الظاهر ولم يتعارض مع مفاهيم الشريعة، ومنه ما هو مذموم وباطل، إذا ما شطّ عن ظاهره، أو تعارض معه، أو زاحمه، وإن اختلفوا في حدود استعمال البطون، ووضعوا شروطاً وضوابط لقبولها، ويصرّحون بضرورة العلاقة الوثيقة بين الظاهر والباطن.

فهذا (الشاطبي) بعد أن يؤكد على أهمية الوقوف على المعاني الباطنة،

(٣١) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج١٨، ص٢٤٨.

(٣٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢، ص٥٩٨.

(٣٣) الكاشاني، ملا محسن، الصافي في تفسير القرآن، ج١، ص٢٨-٢٩.

يقيدها بشرطين:

الأوّل: أن يصحّ على مقتضى الظاهر المقرّر في لسان العرب، ويجري على المقاصد العربية.

الثاني: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض[٣٤].

ويضع (العلاّمة الطباطبائي) شرطين لقبول المعنى الباطن:

الأوّل: أن يكون الكاشف عن المعنى الباطن ظواهر الآيات نفسها، فالظاهر عنوان الباطن وطريقه.

الثاني: ألاّ يكون الباطن مناقضاً لظاهر الكتاب والشريعة.

يقول: ((إنّ القول بأنّ تحت ظواهر الشرعة حقايق هي باطنها حقٌّ، والقول بأنّ للإنسان طريقاً إلى نيلها حقٌّ، ولكن الطريق إنّما هو استعمال الظواهر الدينية على ما ينبغي من الاستعمال لا غير، وحاشا أن يكون هناك باطن لا يؤدي إليه ظاهر، والظاهر عنوان الباطن وطريقه.. وحاشا أن يكون في باطنٍ حقٌّ ولا يوافقه ظاهره))[٣٥].

ولم يقتصر الأمر على هذه الأوساط، وإنّما يمتد إلى أصحاب المدرسة الوجودية التي تنكر وجود ارتباط دلالي عرفي بين الألفاظ والمعنى الباطن، ويعتبرون البطون رموزاً وإشارات تدلّ على المعاني التي تهبط عليهم من محلّ أعلى وأرقى من التحقيق والنظر. فممّا يثير العجب أن يؤكد هؤلاء على رعاية الظاهر وضرورة العمل به، كالشيخ (محيي الدين بن عربي) الذي يصرّح بإيمانه بالظاهر، ويؤكد أنّ في القرآن معاني هي من حظ العامّة وهي معاني الظاهر، وأنّ فيه معانٍ من حظّ الخاصّة والأولياء وهي معاني الباطن، والأولياء هم في مراتب في فهم هذه المعاني العميقة الباطنة.

والغزالي يشدّد على ضرورة إتقان الظاهر ويعتبره قنطرة لفهم المعاني الباطنة، ولا يعدّ الوقوف على

(٣٤) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، ص٦٥٣.

(٣٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص١٢.

الباطن تفريطاً بظاهر اللفظ، وإنّما هو ((إستكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره، فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر))[٣٦].

لقد ذكر المفسّرون ضوابط معيّنة لتفسير القرآن، على المفسِّر أن يلتزم بها ولا يحيد عنها، وإحدى هذه الضوابط هي عدم جواز تحميل الآيات القرآنية ما لا تدلّ عليه من المفاهيم، بلا شاهد يوقع المفسّر في التفسير الباطل، فإذا كان المفَسَّر وحَمْل الآية نوعاً من التفسير الذي هو وفق ما تمليه ظنون المفسِّر الأولية أو تابعاً لهواه وميوله الشخصية، فهو يعدّ تفسيراً (بالرأي المذموم)، وأوضح مصاديق هذا النوع من التفسير هو تفسير الفرق الباطنية، التي تعتقد أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ونسبة الظاهر إلى الباطن نسبة المخ إلى الجلد أو القشر إلى اللبّ، وأنّ المراد هو باطن القرآن وليس الظاهر، وأنّ الباطن منقطع عن ظاهره، و((التفسير الباطني يقوم على أساس اصطناع نوع من المماثلة بين معنيين لاتربط بينهما أية علاقة حقيقية، لا علاقة لغوية ولا علاقة عقلية في إيجاد العلّة الأصولية المشتركة المنضبطة، أو الاستدلال بالشاهد على الغائب، أو بالحدّ الأوسط الذي يجمع بين مقدمتي القضية المنطقية))[٣٧].

إذاً، لاخلاف في وجود علاقة تربط بين الظاهر والباطن، ولا منكر لذلك، إلاّ ما عرف عن الباطنية المنحرفة، وأمّا البطون بالمعنى المتقدم والمتحصلة من النصوص الروائية المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فمنها بطون يمكن أن تنالها الأفهام في إطار المحاورة العقلائية؛ ومن جملتها البطن بمعنى التأويل بعد تجريد الخصوصيات وتطبيق اللفظ على المورد المشابه، وهذا المعنى مقبول وقد تلقاه الفريقان بالقبول، وهذا البطن يقوم على أساس كشف مناط الحكم، فإذا تمّ كشف المناط بشكل قطعي،

(٣٦) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، احياء علوم الدين، ج١، ص٢٩٣.

(٣٧) أيازي، علي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، ص٢٠.

صحّ تطبيقه على الموارد الأخر.

ومنها بطون دلالتها في أغلب الأحيان تكون بعيد عن الأذهان، وليس للمفسّر طريق لفهمها وتبيينها، إلاّ أقوال النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام، العالمين بظاهر القرآن وباطنه وتأويله.

إنّ بعض المحققين من أهل السنّة ينظر الى تفسيرات المتصوفة بما فيها من شطحات وأوهام بأنها مواجيد يمكن الجمع بينها وبين الظاهر، أو هي من باب تداعي المعاني وذكر النظير بالنظير، ويصفون تفاسير أمثال تفسير روح المعاني لشهاب الدين محمود الآلوسي(١٢٧٠هـ)، و(تفسير التستري) لسهل بن عبد الله التستري (٣٨٣هـ)، وتفسير (كشف الاسرار) للميبدي بأنها أهم كتب التفسير الإشاري، فيما يتهمون التفسير الشيعي بالباطنية، ويعدّونه في تفاسير هذه الفرق[٣٨]، واتهامهم هذا إمّا نابع من تعصب، وإمّا عن عدم إدراك المعنى الصحيح لبطون القرآن عند الشيعة وخلط بين معنى البطون ودلالات الألفاظ[٣٩]، أو يصدرون أحكامهم من خلال النظر في بعض التفاسير الروائية من دون الرجوع إلى أقوال المحققين لمعرفة أسلوب التفسير والتأويل في روايات أهل البيت عليهم السلام أو الى التفاسير الشيعة الاجتهادية المعتمدة لديهم[٤٠].

منشأ بطون القرآن:

إذا كان وجود باطن في مقابل الظاهر مورد اتفاق الجميع، والكلّ يؤكد على ضرورة ارتباط البطن بالظهر، فما هو منشأ هذا الباطن؟. وما هو سّر اختصاص القرآن بهذا العمق؟.

(٣٨) انظر أقوال ابن تيمية، تقي الدين احمد، التفسير الكبير، ج١، ص٤٦ -٤٩؛ الغفاري، ناصر، أصول مذهب الشيعة، ج١، ص١٥١؛ الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٢٧ -٣٢ وص٤١.

(٣٩) انظر: الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٣٢. حيث اعتبر معاني البطون مدلولات لفظية، أو أنها معاني كنائية للآية.

(٤٠) الزرقاني، محمد عبد العظيم، أصدر حكمه على التفسير الشيعي من خلال نظره تفسير (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار) للفتوني العاملي، مناهل العرفان، ص٤٣٦.

ولنطرح السؤال بهذا الشكل: (هل هذا العمق من سنخ المعاني الذهنية والمفاهيم النظرية المستنبطة من اللفظ، أم هي حقائق وجودية لها استقلال سنخي عن الألفاظ)؟.

من خلال ملاحظة ما كتب في هذا المجال، يمكننا تصنيف أقوال الباحثين إلى اتجاهين يمثّلان مدرستين عريقتين في مباحث التفسير، هما: المدرسة المعرفية، و المدرسة الوجودية.

ويتباين هذان الاتجاهان في بيان منشأ البطون، تبعا للفلسفة المدرسية والرؤية التي يتبناها كلّ اتجاه حول حقيقة القرآن الكريم، فالمدرسة المعرفية: تعتبر القرآن حقيقة واحدة، ووجود واحد. فهو كلام الله النازل على النبيّ ﷺ المدوّن في المصحف والمقروء أو المتلو لا غير. ويتمثل هذا الاتجاه في جملة من المفسّرين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين.

والمدرسة الوجودية تؤسس مبادئها على أساس نظرتها إلى القرآن الكريم، على أنّه حقيقة ذات مراتب وجودية مختلفة، لها تحقق في ما وراء وجوده اللفظي والكتبي، والبطون حقيقة ترجع في نشأتها إلى تلك المراتب الوجودية.

وبتعبيرٍ آخر: اعتبرت المدرسة الوجودية حقيقة القرآن فيما وراء الظاهر داخلة في الغيب المستور عنّا، فلا مجال لإدراك تلك الحقيقة بالمعاني المتداولة، ولا بالمجادلات الكلامية ولا بالقياسات الفلسفية والبراهين العقلية، وإنّما تتجلى المعاني الحقة بالمجاهدة والكشف والشهود.

إنّ المدرسة الوجودية تُرجع منشأ البطون إلى مدلول اللفظ وعمق المعنى، ويقف العرفاء والحكماء في مقدمة القائلين بهذه النظرية. وكلّ اتجاه تنبثق منه تكييفات مختلفة لحقيقة البطون ومناشئها.

١. الاتجاه المعرفي:

هذا الاتجاه يعتبر الباطن نوعاً من مقولة اللفظ، ويعيد البطون إلى اللفظ واستعماله وليس إلى باطن المعنى. وبتعبير آخر يرجع منشأ البطون القرآن إلى دلالة لفظه، ويعتبرها من سنح المعاني

والمفاهيم الذهنية المنبثقة من مفردات اللفظ القرآني وتراكيبه.

فالأصوليون يقسّمون دلالات الألفاظ إلى دلالة مطابقية، والتزامية، تضمنية. وحيث كان استعمال اللفظ في أكثر من معنى ممتنعاً حسب العادة والعرف؛ حاول جماعة من المفسّرين والأصوليين توجيه روايات البطون، وبيان ارتباط باطن اللفظ مع ظاهره بتكييفات مختلفة، فاعتبروا البطون مداليل مترتبة طولاً مع المدلول المطابقي، ولكن اختلفوا في تحديد نوع هذه الدلالة، وهنا يبرز تكييفان في تفسير منشأ البطون:

التكييف الأول: البطون من نوع الدلالة المطابقية:

التزم السيد الطباطبائي قدس سره بهذا الرأي في تفسيره، فهو يرى وجود معنى باطن لآي القرآن تكشف عنه ظواهر الآيات نفسها؛ لأنّ المعنى الباطن في طول المعنى الظاهر، ولا يتناقض مع ظواهر الكتاب الكريم.

ويرى أنّ البطون من مقولة المعاني والمفاهيم الذهنية، يدلّ عليها اللفظ بالمطابقة ومترتبة ترتيباً طولياً، يقول قدس سره: ((إنّ للقرآن مراتب مختلفة من المعنى، مترتبة طولاً من غير أن يكون الجميع في عرض واحد، فيلزم استعمال اللفظ في أكثر من معنى واحد، أو مثل عموم المجاز، ولا هي من قبيل اللوازم المتعدّدة لملزوم واحد، بل هي معان مطابقية يدلّ على كلّ واحدٍ منها اللفظ بالمطابقة بحسب مراتب الأفهام))[٤١].

فالذي يظهر من كلامه قدس سره: أنّ منشأ طولية المعاني الباطنية ليس طبيعة النصّ وإنّما هو مدى استيعاب السامع وذكائه وتدبّره. بتعبيرٍ آخر: إنّ الطولية في نطاق الذهن وليس في الخارج.

نلحظ عبارة تقترب من هذا الرأي في تقريرات الشيخ المنتظري للبحث الاصولي لاستاذه السّيد البروجردي يفهم من سياقها: أنّ البطون ليست لوازم المعنى، وإنّما ناشئة من دلالة الآية ومراتب الأفهام والكمالات النفسية:

(٤١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص٦٤.

((يمكن أن يقال: إنّ المراد بها عبارة عن المعاني المختلفة والمراتب المتفاوتة التي تستفاد من الآيات بحسب اختلاف مراتب الناس ودرجاتهم، فإنّ أرباب النفوس الكاملة يستفيدون من الآيات الشريفة ما لا يخطر ببال المتوسطين، فضلاً عن العوام وأرباب النفوس الناقصة، فالبطون السبعة أو السبعون إشارة إلى أصول المراتب الكمالية لنفوس البشر، التي باختلافها يختلف مراتب الاستفادة من الآيات القرآنية))[٤٢].

التكييف الثاني: البطون من نوع الدلالة الالتزامية:

يبتني هذا التكييف على أنّ البطون هي من نوع الدلالة الالتزامية للفظ، فلم يكن المنطوق الصريح أو المعنى الحرفي هو الطريق الوحيد للدلالة على قصد المتكلم، بل هناك طريق آخر اعتبره المتكلمون والأصوليون وهو ما اصطلح عليه بـ(المنطوق غير الصريح)، وأيضاً يعبّر عنه بالمعنى الثانوي، فهذه دلالات لا يدلّ منطوق اللفظ عليها، ولكن تكون من ضرورة اللفظ الالتزامية، من باب الإيماء والتنبيه، أو من باب الإشارة، أو المفهوم الموافق أو المخالف، وقد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من الأصوليين والمفسّرين، وقد ذكر المحقّق الأصولي الكبير محمّد كاظم الخراساني: ((أن البطون يمكن أن يراد بها أحد احتمالين: الاحتمال الأول: أنّ للمعنى الظاهر من القرآن لوازم متعدّدة قد دلّ اللفظ عليها بالدلالة الالتزامية، وإن لم يكن اللفظ مستعملاً، نظير كون ((مجيء زيد)) ملازماً عادةً لنزول البركات. والاحتمال الثاني: أنّ البطن مراد بالاستقلال على نحو العلامية من دون إرادة الاستعمال، أيّ إنّ تلك البطون لم تنبثق من اللفظ بنحو الاستعمال، بل بنحو كونه علامة عليها، فهي مقارنة لِاستعمال اللفظ في معناه من دون دلالة ذلك اللفظ، كما هو لو قال القائل: (قدم الحاج)

(٤٢) المنتظري، محمد حسين، نهاية الأصول -تقرير بحث البروجردي، ص٥٦.

وأراد مقارناً لكلامه معانٍ أخرى من المعاني الاستقلالية، التي تراد مقارنة لِاستعمال اللفظ في معناه من دون دلالة ذلك اللفظ ولو بالالتزام))[٤٣].

ويذكر أحد شرّاح الكفاية أن مراد صاحب الكفاية هو الاحتمال الثاني[٤٤]، وقد اختاره السّيد الخوئي أيضاً[٤٥].

يرى الشيخ (محمّد هادي معرفة) أنّ هذه المداليل لوازم غير بيّنه: ولذا فهي معاني خفيّة مستبطنه: لا تفهم من ظاهر اللفظ وحده: ((إنّ المدلول بالتأويل المعبّر عنه بالبطن من المداليل ا لالتزامية للكلام لزوماً غير بيّن، وعليه فالتأويل تبيين للمعنى الذي تستهدفه الآية بدلالة خفيّة بحاجة إلى تعمق نظر، دون الاقتصار على ظاهر اللفظ الذي هو قيد الملابسات))[٤٦].

التكييف الثالث: الدلالات العرفية والدلالات الرمزية:

ويرى بعض الأصوليين والمحقّقين في علوم القرآن، أنّ البطن مجموعة إشارات ورموز خارج إطار الأوضاع اللغوية والاستعمالات العرفية في المحاورات العقلائية، وليس بينها وبين المعنى الظاهر مناسبة بيّنة، ولذا لا يعرفها إلاّ من خوطب بها، وهم النبيّ ﷺ، وآله الطاهرين عليهم السلام، يقول صاحب هداية المسترشدين: ((إذ كثير من البطون المذكورة في الروايات ليس بينها وبين المعنى الظهري مناسبة بيّنة يصحّح استعمال اللفظ فيها بحسب المتعارف في المحاورات، والظاهر أنّ إرادة البطون مبنية على مراتب أخر عدا الأوضاع اللغوية شخصية كانت أو نوعية بمعناها الأخصّ أو الأعمّ، وإنّما هي مبنية على إشارات لا يعرفها

(٤٣) انظر: المروج الجزائري، محمد جعفر، منتهى الدراية في توضيح الكفاية، ج١، ص١٩٣.

(٤٤) آل راضي، محمد طاهر، بداية الوصول في شرح كفاية الأصول، ج١، ص١٦٣.

(٤٥) الفياض، إسحاق، محاضرات في أصول الفقه -تقرير بحث الخوئي، ج١، ص٢١٤-٢١٥.

(٤٦) معرفة، محمد هادي، التأويل في مختلف المذاهب والآراء، ص١٣٧.

إلاّ الراسخون في العلم))[٤٧].

ويقسّم أحد الباحثين المعاصرين المعنى الباطن على نوعين:

النوع الأول: قابل للفهم وفق اللغة وأصول المحاورة العقلائية، وهو ما يصطلح عليه بجري الآية وتطبيقها على المصاديق المشابهة.

النوع الثاني: هو مجموع الدلالات المرموزة في صورة الحروف والكلمات أو الآيات، وهو خارج اطار اللغة والمحاورات العرفية، يقول في خصوص المعنى الثاني: ((وعلى أساس بعض الروايات التي بينت المعنى الباطن، نستطيع القول: إنّ باطن القرآن هو المعاني والمعارف المقصودة من الآية، ولكن دلالة الآيات على هذه المعاني لم تكن واضحة وفق المباني والقواعد الأدبية وأصول المحاورة، حتى يكون فهمها ميسّر للجميع، بل إنّ دلالة الآيات عليها دلالة رمزية خاصة، ولا يعلمها إلاّ الله والراسخون في العلم (النبيّ ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام))[٤٨].

يستند هذا التكييف إلى خصوصية (عمق المعنى) في القرآن، حيث يلحظ-إلى جانب المعاني الظاهرة البينة والواضحة الدلالة -وجود روايات تتضمن بطون عميقة في القرآن الكريم، بعيدة عن الدلالات العرفية، وعسيرة الفهم، وحفظاً لهذين المستويين من المعاني لابدّ أن يقال: أنّ القرآن تحدّث بلغتين:

اللغة الأولى: هي لغة التخاطب بين البشر، والتي تفهم من خلال الوضع والقواعد والأصول التي قرّرها العقلاء منهم.

واللغة الثانية: لغة رمزية خارج نطاق المحاورة العقلائية المتداولة بين البشر، وهي خاصة بين الله تعالى والنبيّ ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام. وعلى هذا الأساس يكون قرآن قد نزل بلسان

(٤٧) الشيرازي، محمد تقي، هداية المسترشدين، ج١، ص٥٣٦.

(٤٨) بابائي، علي أكبر، مكاتب تفسيرى، ج٢، ص١٦(فارسي)؛ علي أكبر بابائي وآخرون؛ بابائي، علي اكبر، وآخرون، روش تفسير قرآن، ص٢٥٥ (فارسي).

البشر وعرفهم العقلائي العام لينقل المعاني الظاهره لعموم الناس، وتضمن أساليب أخرى ينقل عبرها المعنى الاعمق[٤٩].

٢. الاتجاه الوجودي:

ينظر هذا الاتجاه إلى القرآن على أنّه حقيقة وجودية واحدة، ذات مراتب متعدّدة وراء حقيقة وجوده اللفظي والكتبي، وأنّ دلالته وإن كانت في ظاهرها خاضعة دوماً للمعنى الوضعي والاستعمالي، وتفهم من خلال الاستفادة من قواعد المحاورة الأدبية، وسياق الكلام، وشأن النزول، والتبادر العرفي والقرائن الأخرى؛ لأنّها نزلت بلسان البشر، إلاّ إنّها تدلّ في باطنها على حقائق وجودية ذات مراتب متعدّدة لا يدركها إلاّ العارف والسالك إلى الله بسيره وسلوكه المعنوي، وهو وحده الذي يستطيع أن يفك شفرة الرمز، ليصل إلى المعنى الباطن ويحلّ مستوياته ومراتبه الوجودية.

وتنطلق هذه النظرية في تحليلها لمنشأ البطون من رؤية كونية تماثل بين ثلاث حقائق وجودية هي: الإنسان، والعالم، والقرآن، ومن ثنائية الظاهر والباطن التي تعمّ كلّ شيء في الوجود، فما من شيء إلاّ وله ظاهر وباطن وحدّ ومطلع[٥٠]، وكما أنّ الإنسان والعالم ينقسمان إلى ظاهر وباطن، كذلك القرآن له جانبان ظاهر وباطن ((كما أنّ للإنسان ظاهراً وباطناً، لباطنه باطن آخر إلى سبعة أبطن... فكذا قياس القرآن المساوق للإنسان

(٤٩) قد نجد شواهد تدل على أن من المتكلمين المتقدمين من يذهب إلى أن النظام للغوي للقرآن الكريم لم يكن أرقى من كل كلام عربي فصيح فحسب، بل أنه يعتبر فوق أساليب الفصاحة المعروفة لدى العرب قد جاء بأساليب في الفصاحة والنظم لم تكن معهودة لدى فصحائهم، منهم المتكلم الاشعري ابو بكر محمد بن طيب الباقلاني، في كتابه المشهور (اعجاز القرآن): (ولقد كان في نظم القرآن معجزا لأن نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتادة في كلامهم)، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، ص٧٥، ٣٠٠.

(٥٠) انظر: ابو زيد، نصرحامد، فلسفة التأويل، ص٢٧٧.

الكامل في الكمال والنقصان، والصعود والنزول))[٥١].

وبهذا التماثل يثبت أنّ للقرآن منازل ومراتب ودرجات كما هو للإنسان والعالم، ويكون ((القرآن تعبير لفظي عن الإنسان والعالم، ولمّا كان للوجود والإنسان مراتب متعدّدة ودرجات مختلفة، فإنّ له على صعيد المعنى مراتب ومستويات متعدّدة، لأنّ الوجودات الثلاثة هي تجليات ومظاهر لاسم الله الأعظم، وما يندرج تحته من الأسماء والصفات، فالإنسان جامع لحقائق الكون من جهة وحقائق القرآن من جهة أخرى، والقرآن يختزل بين دفتيه مراتب الانسان وحقيقة وجوده، كما يُعدّ تعبيراً موازياً عن الوجود))[٥٢].

يقف ابن عربي في مقدّمة المشيِّدين للنظرية الوجودية، ويُعتبر كلّ من الغزالي، وصدر الدين الشيرازي، والعلاّمة الطباطبائي، والإمام الخميني، وجوادي آملي، وغيرهم من الحكماء وأهل العرفان امتداداً لمنهج الشيخ ابن عربي.

وقد ذكرت عدة تكييفات لتصوير مناشئ البطون، وربما تتعدد عند الشخص الواحد، إلاّ أنّها جميعها تدور في فلك هذا الاتجاه الذي ينظر إلى حقيقة القرآن في ما وراء هذه الحقيقة النازلة للبشر، وهنا نورد بعض منها:

التكييف الأول: تجلي الله في القرآن:

يؤمن بعض أقطاب المدرسة الوجودية بأنّ الله تعالى قد تجلى في القرآن لخلقه، وأن القرآن هو المرتبة النازلة من تجلي الحق جلّ وعلا، أو هو تجلي الاسم الأعظم الجامع لكلّ الحقائق.

لعلّ أول مَن طرح نظرية التجلي الالهي في القرآن هو أبو حامد الغزالي، مقتبساً هذا المفهوم من النصوص الدينية، حيث استدلّ بحديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((والله لقد تجلى الله عزّ وجلّ لخلقه في كلامه، ولكنهم لا

(٥١) الشرازي، صدر الدين، تفسير القرآن الكريم، ج٦، ص٢٣.

(٥٢) كسار، جواد علي، فهم القرآن دراسة على ضوء المدرسة السلوكية، ص٤٤١.

يبصرون))[٥٣]. مستفيداً من النصّ أنّ هناك ملازمة بين المتجلي (الله) والمتجلّى به (القرآن) في العمق، مما يؤدي أن يكون المتجلّي مماثلا للمتجلّى في عمقه، وهذا هو سر البطون في القرآن، واشتماله على معاني لا تنفد مع الزمان؛ لأنّه صورة لتجلي مطلق لانهائي[٥٤].

ثمّ شهدت هذه النظرية تطوراً على يد صدر الدين الشيرازي، ثمّ السيّد محمد حسين الطباطبائي، والإمام الخميني، وجوادي آملي[٥٥].

ينظر الإمام الخميني قدس سره للقرآن الكريم على أنّه صحيفة نورانية، هي صورة الاسم الأعظم هبطت على الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمّدية: ((كما أن الكتاب المنزل إليه صلى الله عليه وآله من مرتبة الغيب بتجلي الاسم الأعظم، لهذا الكتاب الشريف أحدية الجمع والتفصيل، وكان من (جوامع الكلم)))[٥٦].

التكييف الثاني: أسماء القرآن مراتب غير محصورة:

يعتمد الشيرازي (أسامي القرآن) أساساً لإثبات مراتبه الغير متناهية، وينظر إلى الاستماع الصوتي للقرآن أو تلاوته ليس إلاّ استماعاً لكلمات الوجود، فمن يكن ذا سمع باطني في عالم العشق الإلهي يكون ممّن يسمع أسماء القرآن وتنكشف له بطونه وعوالمه أو مراتبه؛ لأنّ القرآن يتسم «في كلّ عالمٍ باسمٍ خاص مناسب لمقامه الخاص، ففي عالم يسمى بالمجيد؛ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [سورة البروج: ٢١]، وفي عالم آخر اسمه عليّ؛ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: ٤]، وفي نشأة أخرى أسمه، مبين؛ ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة النمل: ١]، وفي مقام

(٥٣) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، احياء علوم الدين، ج١، ص٢٨٧.

(٥٤) الصدر، موسى، مجلة الحياة الطيبة ص١٠٣، مقال: سرّ العمق القرآني: نظرية الدلالة والمدلولية.

(٥٥) أنظر: كسار، جواد علي، فهم القرآن دراسة على ضوء المدرسة السلوكية، ص٢٦٦.

(٥٦) الموسوي الخميني، روح الله، آداب الصلاة، ص٤٣٩.

آخر اسمه نور؛ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ [سورة التغابن: ٨]، ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [سورة المائدة: ١٥]، وفي منزل أسمه عظيم؛ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [سورة الحجر: ٨٧]، وفي مرتبة: عزيز؛ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ [سورة فصلت: ٤١]، وفي مظهر كريم؛ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [سورة الواقعة: ٧٧]. وأساميه غير محصورة، ولو كنت ذا سمع باطني في عالم العشق الحقيقي والحِكَم الإلهية، لكنت ممّن يسمع أسماءه وتُستكشَفُ له بطونه، إنّ للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً، كما أنّ للإنسان ظاهراً وباطناً، ولباطنه باطن آخر إلى سبعة بطون[٥٧].

التكييف الثالث: القرآن كلام الله ولمعة من لمعات ذاته:

ينطلق الشيرازي هذه المرة من كلام الله الذي هو لمعة من ذاته المقدّسة؛ ليرجع اختلاف الأفهام في معاني القرآن الذي هو كلام الله إلى اختلاف وتفاوت الآراء والمذهب في ذاته، ((وهكذا علّة اختلاف المشتغلين بعلم القرآن، وتفاوت مراتبهم في بطونه وظهوره ولبابه وقشوره؛ لأنّ كلام الله لمعة من لمعات ذاته، فكما وقع الاختلاف والتفاوت في مذاهب الخلق واعتقاداتهم، بين مجسّم ومنزّه ومتفلسف ومعطّل ومشرك وموحّد، هكذا وقع الاختلاف والتفاوت بينهم في المفهوم، فهذا مما دل على كمال؛ القرآن لأنّه بحر عميق..))[٥٨].

التكييف الرابع: التوحيد بين القرآن والصفات والأفعال الإلهية:

يحرص الغزالي على أن يجعل النصّ القرآني كتاب العلم الإلهي الجامع لعلوم الدين والدنيا، منطلقاً من التصور الأشعري للكلام الإلهي بوصفه صفة ذاتية قديمة، في مقابل النصّ المقروء والمسموع الذي ليس هو إلاّ محاكاة لصفة الكلام القديم الموجود في النفس، ليبني عليه فكرة معقّدة حول مفهومي الباطن والظاهر، هي

(٥٧) الشيرازي، صدر الدين، المصدر نفسه، ج٦ ص٢٣.

(٥٨) المصدر نفسه، ج ١، ص٣١.

مزيج من الفكر الأشعري والصوفي كما يراه أبو زيد في دراسته لتجربة الغزالي.

ويقسّم الغزالي علوم الدين إلى علوم (الصدف والقشر)، وهي علوم الظاهر التي يتجلى لنا من خلالها النصّ، وعلوم (اللباب) وهي الحقائق الوجودية التي يتضمنها النصّ[٥٩].

إنّ علوم الدين والدنيا برمّتها تستبطنها الآيات الدالة على معرفة الله، وعلوم معرفة الله(علوم اللبّ) تنقسم إلى ثلاث دوائر متدرجة من السعة إلى الضيق هي: معرفة الأفعال (علوم الدنيا)، ومعرفة الصفات (علوم الدين) ومعرفة الذات. إنّ دائرة الأفعال هي الأوسع؛ لأنّ كلّ كلمةٍ في الوجود هي صادرة عن فعله تعالى؛ ولذا يستحيل حصرها، ولا يمكن أن يحيط بها الكائن المحدود المحكوم بالنقص سواء أكان ملكاً أم إنساناً أم بهيمة، ((وإنّما الله سبحانه هو الذي لايتناهى العلم في حقه... إنّ العلوم التي عدّدناها وما لم نعدّها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإنّ جميعها مغترفة من بحرٍ واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنّه بحر لا ساحل له، لو كان البحر مداداً لكلمات الله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد))[٦٠].

وهي أيضاً الدائرة الأدنى معرفياً؛ لأنّ معرفة الأفعال هي دائر علوم الدنيا، ومن ثَمَّ تكون دائرة معرفة الصفات أضيق مجالاً وأرقى معرفياً من دائرة الأفعال.

والإنسان العارف ينطلق في رحلته المعرفية من دائرة الأفعال إلى دائرة الصفات، حتى يصل إلى علم الذات.

هكذا تكون العلوم جميعها تغترف من بحر الصفات ومن بحر الأفعال الإلهية، وهكذا ((صارت الآيات الدالة على معرفة الله هي سرّ القرآن ولبابه الأصفى، وصار العلم الناتج عن هذه الآيات هو العلم الأول في علوم الطبقة

(٥٩) انظر: ابو زيد، نصر حامد، مفهوم النصّ دراسة في علوم القرآن، ص ٢٤٨.

(٦٠) المصدر نفسه، ص٢٥٥، نقله عن جواهر القرآن، ص٢٦.

العليا من علوم اللباب))[٦١].

إنّ التوحيد بين القرآن والصفات والأفعال جعل من النصّ القرآني بحراً زاخراً بالأسرار والعلوم الدينية والدنيوية التي لا حدّ لها، وهذا يعني أنّ سرّ عمق المعنى في القرآن يرجع إلى العلم الإلهي في تنزلاته في تلك العوالم، وآيات معرفة الله لها الحظ الأوفر من تلك العلوم والفيوضات، وبالتالي تكون البطون ناشئة من مظاهر العلم الإلهي المكنون، الذي لا يطلع على سرّه أحد، إلاّ من خصّهم الله بعنايته.

التكييف الخامس: المرتبة الوجودية للقرآن في (اللوح المحفوظ):

يقدّم أبو حامد الغزالي في كتابه (جواهر القرآن) تفسيراً آخر لمنشأ البطون في القرآن، يقوم على أساس أن للقرآن الذي بين أيدينا وجوداً آخر في عالم الملكوت، وربما أهم مراتبه هي اللوح المحفوظ.

إنّ تركيبة حروف القرآن في ذلك العالم تأخذ قالباً مثالياً لتعبّر عن حقائق وأرواح الألفاظ، وأمّا حروف القرآن المنقوشة التي هي المنزلة الأخيرة للكلام الإلهي، فهي تخضع للمواضعة والتواطئ وقوالب اللغة، وهي تدلّ على المعاني القشرية، أمّا روحها وسرّها فلا يدركه ولا يناله إلاّ السالكون إلى الله.

وعلى هذا الأساس يفرّق بين المعاني المباشرة التي تدرك من خلال الفهم اللغوي وإعمال الفكر، وهي معاني محدودة بحدود الظاهر وحدود المتلقي، وبين المعاني الكامنة وراء الظاهر (أي: الباطن)، فإنّ المعاني الحقيقية للقرآن تدخل في جملة الملكوت، ومصونة في اللوح المحفوظ، وهي هناك أعمق وأشمل، لها عمق لا قرار له ولا نهاية أو حدّ له، ((إنّ كلّ حرف من كلام الله عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف، وإنّ الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما استطاعوا))[٦٢].

على هذا الأساس يكون منشأ

(٦١) المصدر نفسه، ص٢٥١.

(٦٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، جواهر القرآن، ص٣٦.

العمق في القرآن هو: التركيبة الخاصة لحروف القرآن في اللوح المحفوظ.

التكييف السادس: لغة المثال في آيات الاعتبار:

يستعمل القرآن في كثير من آياته المثال في تبيين مقاصده، ويصرّح بذلك في جملة من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٢٧].

وثمة فهمان قد تكونا عند السلف حول طبيعة المثال في القرآن:

الفهم الأول: ينظر إلى الأمثال على أنّها وسيلة من وسائل الإيضاح، وتقريب المعاني الذهنية البعيدة بمعاني حسّية قريبة فحسب.

الفهم الثاني: يعطي الأمثال دوراً أبعد من كونها وسيلة إيضاح وتعبير لتفهيم السامع، بل هي لغة رمزية إشارية ترتبط بما وراءها من حقائق وواقعيات، والمقصود هو هذه الحقائق لاتلك الرموز.

ويكاد يطغى الفهم الثاني على نصوص المدرسة الوجودية، ابتداءً من (ابن عربي) حينما شدّد على أنّ الرمز يرتبط بما وراءه من المعاني المؤثرة في نفس السامع: ((إنّ الرموز والألغاز ليس مرادة لأنفسها، وإنّما هي مرادة لما رمزت إليه ولما ألغز فيها، ومواقعها من القرآن آيات الاعتبار كلّها، والتنبيه على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] فالأمثال ما جاءت مطلوبة لأنفسها، وإنّما جاءت ليعلم منها ما ضربت له وما يضرب من أجله))[٦٣].

والاعتبار هو الجواز من ظاهر ما يعطيه النص إلى باطنه المراد: ((إنّ الله قد ربط بكلّ صورةً حسّية روحاً معنوياً بتوجّه إلهي عن حكم اسم رباني؛ لهذا اعتبرنا خطاب الشارع في الباطن على حكم ما هو في الظاهر قدماً بقدم؛ لأنّ الظاهر منه هو صورته الحسّية، والروح الإلهي المعنوي في تلك الصورة هو

(٦٣) ابن عربي، محيي الدين، الفتوحات المكية، ج١، ص١٨٩.

الذي نسميه الاعتبار في الباطن، من (عبرت الوادي، إذا جزته) وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [سورة النور: ٤٤]، وقال: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [سورة الحشر: ٢]، أيّ جوّزوا ما رأيتموه في الصورة بأبصاركم إلى ما تعطيه تلك الصور من المعاني والأرواح في بواطنكم فتدركونها ببصائركم.

وأمر وحثّ على الاعتبار، وهذا باب أغفله العلماء، ولا سيّما أهل الجمود على الظاهر، فليس عندهم من الاعتبار إلاّ التعجب، فلا فرق بين عقولهم وعقول الصبيان الصغار، فهؤلاء ما اعتبروا قط من تلك الصورة الظاهرة كما أمرهم الله))[٦٤].

إنّ النظرية الوجودية بوجوهها أو تكييفاتها المختلفة تشترك في القول بأنّ مفهوم الباطن غير مفهوم الظاهر، وهو أيضاً ليس من مدلولات اللفظ، ومع أنّ العلاقة بينهما ليست بنحو الدال والمدلول، لكن في الوقت نفسه له ارتباط من نوع آخر، يتمثل في علاقة الرمز ومرموزه، وإنّ بطون وأسرار القرآن سلسلة ذات مراتب، وإنّ كشف أيّ نوعٍ مفهومي من هذه البطون من خصوصيات الله عزّ وجلّ والعلماء المطهّرون من الدنس والصادقون بعلمهم وعملهم.

يكتب الإمام الخميني قدس سره: ((اعلم إنّ الكتاب التدويني الإلهي سبعة بطون باعتبار وسبعين بطناً، بوجه لايعلمها إلاّ الله والراسخون في العلم، ولا يمسّها إلاّ المطهّرون من الأحداث المعنوية والأخلاقية الرذيلة السيئة، والمتحلون بالفضائل العلمية والعملية...))[٦٥].

إنّ هذا الذي يسوقه الإمام هو نصّ مفعم بالذوق العرفاني، ينسجم كثيراً مع نظرية ابن عربي في تنزيل الفهم، بعد تنزيل الأصل (الكتاب)

(٦٤) ابن عربي، محيي الدين، ص٥٥١؛ ابو زيد، نصر حامد، فلسفة التأويل، ص٢٦٨.

(٦٥) الموسوي الخميني، روح الله، شرح دعاء السحر، ص٥٩.

فكما كان الأصل تنزيلاً من الله على أنبيائه، كان التأويل تنزيلاً على أهله العلماء. يقول ابن عربي: ((وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه، كان تنزيل الفهم على قلوب بعض المؤمنين به، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله ما لم يقل لها، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها، ولا تعملت فنه، بل جاءت من عند الله، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وقال فيه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[سورة فصلت: ٤٢]، وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله لا من فكر الإنسان ورويته-وعلماء الرسوم يعلمون ذلك -فينبغي أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه... من علماء الرسوم، فيكون شرحه أيضا تنزيلاً من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل، وكذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الباب: ((ما هو إلاّ فهم، يؤتيه الله من عباده في ذا القرآن))))[٦٦].

النتيجة:

تعددت المواقف حول بطون القرآن الكريم، بين من يسرف في استعمالها ويقدمها على المعنى الظاهر، وبين من يحط من شانها وينكر وجودها ويضعّف أدلتها، وبين معتدل يُثبتها ويُخضعها لضوابط التفسير وشروطه، إلا أن وجود بطون في القرآن الكريم أمر دلت عليه الروايات المتكثرة من طرق الشيعة والسنة، والتي بلغت حد الاستفاضة إن لم نقل أنها قد وصلت الى مستوى التواتر، وهي من جهة السند فيها ما هو سنده صحيح، ومن جهة المضمون فيها ما يدل على وجود البطون صراحة، وفيها ما يدلّ عليه التزاماً، ومن خلال مراجعتنا لتلك النصوص سجلنا نتيجة مفادها: أنّ مصطلح البطن قد استُعمل بمعناه اللغوي، الذي هو يقابل الظاهر، وهو مطلق المعنى المستبطن في الآية الخفيّ

(٦٦) ابن عربي، محيي الدين، الفتوحات المكية، ج١، ص٢٨٠.

عن الأنظار في بدء الأمر، وهو معنى جامع للمعاني المتعددة التي ذكرتها الروايات؛ فالمعنى الباطن قد يكون عبارة عن انطباق الآية على المصاديق غير الواضحة في الخارج، أو أنه بيان للمصداق الاكمل، أو بيان للمصاديق التي لم تكن متحققة حال نزول الآية أو التي لم تكن متحققة حال بيانها في روايات أهل البيت عليهم السلام، أو هو عبارة عن المعنى الالتزامي أو الاشاري للآية، أو هو تنقيح المناط بعد الغاء الخصوصية، وهذه المعاني لا تلغي ظاهر الآية وإنما هي في طوله؛ ولذا جمعت بعض الروايات بين المعنى الظاهر والباطن للآية في آن واحد.

إذاً تعتبر حقيقة البطون من مقولة اللفظ وسنخ المعاني والمفاهيم الذهنية المنبثقة من مفردات اللفظ القرآني وتراكيبه وهي نوع من الدلالة سوء المطابقية أو الالتزامية، إلا أن التوصل اليها يختلف باختلاف الافهام فمنها ما يمكن أن يناله فهم المفسر كما في البطن الذي هو بمعنى تنقيح المناط والغاء الخصوصية، ومنها ما لا تناله الافهام لخفاء دلالته ويتوقف بيانه على قول المعصوم، كما هو في البطن بمعنى بيان المصاديق الخفية في الخارج أو المصاديق التي لم تتحقق في عصر النزول أو لم يأتي تأويلها بعد، وهذا المعنى الجامع هو الاقرب الى مضمون روايات البطون.